



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بين يدي البحث

نحمد الله ونصلّي ونسلّم على أنبيائه ورسله، ونستفتح بالذي هو خير:
﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [المتحة: ٤]، وبعد:

فإن أول، وأولى ما نستهل به هذا البحث قوله جلّ من قائل:
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۚ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۖ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ - ٤].

أما موضوع البحث: فهو «اللغة العربية لسان الوحي» فمن أراد أن يفهم الشريعة من غير فهم اللغة كمن أراد أن يصل الغاية من غير الوسيلة، وهذا بالطبع محال، ومن درس اللغة بعيداً عن فهم الشريعة فقد جعل الوسيلة غاية، وهذا بالطبع خسران، لذلك فقد اختار الله تعالى اللغة العربية

من بين لغات العالمين التي لا نحصي عددها، اختار هذه اللغة لتكون لغة كتابه العزيز، لأنه تعالى يعلم أنها خير اللغات وأوسعها، وهو أعلم حيث يجعل رسالته: إنساناً، ولغة، وزماناً ومكاناً، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقد أتى رسوله الكريم جوامع الكلم، قال ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم»^(١)، والقرآن الكريم هو مصدر التشريع، ويمثل المعجزة الخالدة في بلاغة هذه اللغة وفصاحتها، وقد أشار القرآن الكريم إلى نزول القرآن بهذه اللغة في إحدى عشرة آية، كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥]، فالقرآن الكريم هو كتاب اللسان العربي المبين، ومن ثم فإن تعليم هذه اللغة وتعلمها هو أمر ديني، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، لذلك فإن معرفة هذه اللغة، والاطلاع على قواعدها، وفصاحتها، وأسرار بلاغتها واجب شرعي، لأن الله تعالى اختارها من بين لغات العالمين لتكون لغة الكتاب المبين، وقد تكفل هو بحفظه، قال جل من قائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وبهذا فقد حفظت اللغة بحفظه.



(١) تمييز الطيب من الخبيث ص ٤٧.



اللغة العربية لسان الوحي والتعبد

لقد بزغ فجر الإسلام على الدنيا كلها، رسالة عالمية جاءت لخير الأمم والشعوب، لا فرق فيها بين عربي وعجمي، أو شرقي وغربي: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وينزل القرآن الكريم على محمد ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥] ويتحدى العرب الأقحاح أن يأتوا بمثله فيعجزون على فصاحتهم، لأن هذا القرآن الكريم وإن كان من حروفهم وكلماتهم، فقد أنزل الله هذا القرآن بهذه الحروف، وتلك الكلمات، فكان الفرق بين ما صنع الله منها وما نصنع نحن البشر كالفرق بين ما صنع الله من التراب، وما نصنع نحن منه، فقد صنع الله من التراب بشراً سوياً ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [السجدة: ٩] وفضله على كثير من خلقه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَنَاءِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، ولكن الإنسان لا يصنع من التراب إلا أشكالاً وأنماطاً، وصدق الله العظيم حيث يقول واصفاً وحيه، وما أنزل على رسوله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَتُوبْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنَّ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

إن العربية لسان الوحي، ولغة التعبد لله تعالى رب العالمين، وهي لغة المناجاة بين العبد وربّه في الصلوات المكتوبات، قال ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» [رواه جماعة^(١)]، ولذلك حفظت العربية وخلدت لنزول القرآن الكريم بها، ذلك الكتاب الذي تكفل الله تعالى بحفظه حيث

(١) فقه السنة، (١/١٣٥).

يقول جل من قائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، لذلك فقد كان نزول القرآن الكريم إيذاناً بحياة لغوية جديدة، وهي عالمية هذه اللغة لأنها الوعاء الذي أراد الله أن يحمل هذه الرسالة العالمية، هذا النور الخاتم، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقد اختار الله هذه اللغة وعاء لكتابه، وحملنا أمانة الحفاظ على هذه اللغة، لغة القرآن، ويتحدث أهل الفصاحة والبيان أن يأتوا بمثله، أو بسورة من مثله فيعجزون على فصاحتهم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٣٣] فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ أَتَىٰ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

ولنقف متأملين قوله جل من قائل: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ ولنستمع لعلماء اللغة وهم يقررون أن «لن» تدل على النفي التأييدي، ونقرأ الآن بعد أن توالى القرون على هذا التحدي، نقرأ التفسير الحق لقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ لأننا نملك من برهان الزمن الدليل القطعي على أن هذا القرآن هو كلام الله المعجز، لقد كان هذا الدليل قولياً عند جيل الصحابة، ومع ذلك كان كل واحد منهم قرآناً حياً، ولكن هذا الدليل بالنسبة لنا أصبح دليلاً واقعياً بعد أن مرّت القرون التي تحمل التفسير الواقعي لكلمة «لن» في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾.

أقول ذلك لأن ما يصدر عن الإنسان من معارف وعلوم لا يمكن أن يمرّ عليه قرن من الزمان من غير أن يعتريه واحد من تغيرات أربعة هي: النقد أو النقص أو النقص أو الإضافة، ويجمع كل هذا كلمة قرآنية واحدة، هي كلمة «اختلاف» في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، تدبر هذه الآية الكريمة تجد أنها تؤلف قياساً



منطقياً سليماً، فيه حجة قطعية، ونتيجة حتمية، والقياس هو: لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً، ولكن رغم مرور القرون عليه لم يوجد فيه أي اختلاف في المبنى أو الدلالة، فالنتيجة العقلية الحتمية هي: إن هذا القرآن من عند الله، ولا اختلاف فيه، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وإن من يعرض عنه لا يملك دليلاً علمياً أو عقلياً.

كذلك فإنني أغتنم هذه الفرصة فرصة هذا اللقاء مع إخوة علماء ولغويين لتتواصى بأن نجعل من مائدة هذا الكتاب العزيز واقعاً لدراسة لغوية ودلالية تمكّن دارس الشريعة من الاطلاع على كنوز هذا الكتاب الكريم، الذي ما قامت الدراسات اللغوية إلا للكشف عن تلك الكنوز، وحماية الكتاب العزيز من اللحن والخطأ، ولذلك هبّ الغيورون على لغة القرآن لحمايتها من شوائب اللحن، وكان خوفهم على القرآن الكريم من أهم الأسباب التي حفزتهم لوضع علم قواعد اللغة، وقوانين نطقها، مدفوعين في ذلك بالدافع الديني حتى يستطيع الدارس فهم اللغة، وتأدية معناها وإجادتها، ولأداء شعائر الإسلام التي لا تؤدي إلا بها، ولذلك وضع علم النحو في ظل حماية لغة القرآن من اللحن أو الخطأ.



نشأة علم النحو وصلتها بعلوم الشريعة

معلوم أن الإسلام رسالة عالمية خالدة، وليست لقوم معينين، ولا لزمان خاص، فالتاريخ الإنساني لم يعرف غير محمد ﷺ نبياً ولا رسولاً قد أفرغ الله وجوده في الوجود الإنساني كله، فجعل رسالته عالمية عامة جاءت لخير الأمم والشعوب، فإذا الإنسانية تتغير به كما تتغير المادة بالمادة لتصبح شيئاً مغايراً لما كانت عليه، وصدق الله العظيم في وصفها قبل البعثة وبعدها في قوله: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فحمل المؤمنون تلك الأمانة إلى العالمين، واختلطوا بغيرهم من الأمم الذين حملوا لهم الإسلام، فقرأوا القرآن دون أن يكون لهم علم بالعربية، فتسبب عن ذلك وجود اللحن، فأحس الغيورون على لغة القرآن أن اللحن بدأ يغزو الألسنة، وأن لغة القرآن بدأت تتعرض لخطر اللحن، فأخذ العلماء يفكرون في وضع علم يحفظون به لغتهم، فكان علم النحو، فهو من العلوم التي نشأت في ظل الإسلام شأنه في ذلك شأن بقية علوم الدين كالتفسير والحديث والفقه، وغايته صون اللغة من اللحن، وحماية القرآن من الخطأ الذي بدأ يشيع وينتشر بسبب اختلاط العرب بالأعاجم.

أما واضح هذا العلم فيروي الجمهور أن أبا الأسود الدؤلي هو الواضع الأول لعلم النحو، وأما بعض الروايات كتلك التي تقول: إن نصر بن عاصم الليثي هو الواضع لهذا العلم، أو التي تقول: إن عبدالرحمن بن هرمز هو الواضع له، أو غيرهما من الروايات فلا يثبت شيء منها أمام البحث وذلك لقلة من ذكرها من المؤرخين الثقات، ولأن أبا الطيب اللغوي وهو أول من تعرض لنشأة النحو من المؤرخين كانت جميع الروايات التي ذكرها تجمع



على أن أبا الأسود هو الواضع الأول لهذا العلم، ثم إن السيرافي المتوفى سنة ٣٦٨هـ، وهو أول من ذكر تلك الروايات، يقول بعد ذكرها: «وأكثر الناس على أبي الأسود الدؤلي»^(١)، وإن وجود بعض الروايات التي ترجع وضع النحو لغير أبي الأسود ليدل على وجود محاولات واهتمامات كثيرة بهذا الأمر، سواء كان ذلك من العلماء، أو المسؤولين، ولكنها جميعها كانت بدافع ديني، وهو المحافظة على القرآن الكريم واللغة العربية وعاء القرآن الكريم من اللحن، وهو عمل علمي حضاري ديني ينسجم والنهضة الحضارية التي جاء بها الإسلام الحنيف وأمر بها كتابه الكريم الذي كان أول أمر تلقّوه منه قوله جلّ من قائل: ﴿أَقْرَأْ بِآسِرِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

وقد كان للنحاة شرف المشاركة في خدمة القرآن الكريم، ولا نغالي إذ نقرر أن النحاة كانوا من أوائل العلماء الذين لهم شرف السبق في ميدان خدمة القرآن الكريم، فأول عالم نقّطه وأعربه هو أبو الأسود الدؤلي^(٢)، وكان يسمى «العربية» و «الصرف والإعراب» ثم أطلق عليه اسم «النحو» تيمناً بقول الإمام علي كرم الله وجهه لأبي الأسود حين عرض عليه أول ما ألف في النحو فأعجب به وقال له: «انحُ هذا النحو»، أو «ما أحسن هذا النحو الذي نحوت»^(٣)، وهو اسم يطلق على الصرف والإعراب، وهو ما نسميه اليوم «النحو والصرف» وكلاهما لحماية اللسان من اللحن الذي فشا بعد اختلاط العرب بغيرهم من الأمم الذين حملوا لهم أمانة السماء، وبلغوهم رسالة الإسلام، وليس معنى هذا أن اللحن لم يكن من قبل، ولكنه كان قليلاً نادراً، ومع ندرته كان يعتبر ضلالاً^(٤). ويُرجع التاريخ هذا اللحن النادر إلى عهد الرسول ﷺ، وعهد الخلفاء الراشدين، فقد روي أن رجلاً لحن أمامه ﷺ

(١) انظر نزهة الألباء، ص ١ - ٥؛ وإنباه الرواة على أبناء النحاة ط ص ٩.

(٢) أبو الأسود الدؤلي، ص ٩٠ وما بعدها.

(٣) المرجع السابق.

(٤) الخصائص لابن جني (٨٢/٢).

فقال لمن حوله من الصحابة: «أرشدوا أخاكم فقد ضلّ»، كما روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرّ بقوم لا يحسنون فنّ الرمي، فلامهم على جهلهم بفنّ الرماية، فقالوا معذرين للخليفة عن ذلك الخطأ: «إنا قوم متعلمين» فأعرض عنهم وقال: «والله إن خطأكم في لسانكم أشدّ من خطئكم في رميكم» سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «رحم الله امرأ أصلح من لسانه»^(١).

وروي أن أبا موسى الأشعري أمر كاتبه أن يكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب فكتب الكاتب: «من أبو موسى الأشعري»، فكتب إليه عمر رضي الله عنه: «أما بعد، فاضرب كاتبك سوطاً واحداً، وأخر عطاءه سنة»^(٢)، وأورد ابن الأنباري رواية أخرى قال: «قدم أعرابي في خلافة عمر رضي الله عنه فقال: «من يقرئني شيئاً مما أنزل الله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؟» فأقرأه رجل من سورة «براءة» - التوبة - حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٣] فقرأها بجرّ كلمة (رسوله)، فقال الأعرابي: «أو قد برئ الله من رسوله؟ إن يكن الله قد برئ من رسوله، فأنا أبرأ منه» فبلغ ذلك الخليفة عمر بن الخطاب، فدعا الأعرابي وقال له: أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال الأعرابي: يا أمير المؤمنين: إنني قدمت المدينة ولا علم لي بالقرآن، فسألت من يقرئني، فأقرأني هذا سورة «براءة» فقرأ: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ بجرّ كلمة (رسوله) فقلت: أوقد برئ الله تعالى من رسوله؟ إن يكن برئ من رسوله، فأنا أبرأ منه، فقال له عمر: ليس هكذا أيها الأعرابي، وقرأ عمر الآية برفع كلمة (رسوله) أي ورسوله بريء من المشركين كذلك، فقال الأعرابي: «وأنا والله أبرأ من الذين برئ منهم الله ورسوله» فأمر عمر رضي الله عنه ألا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة^(٣).

وتنتشر حوادث اللحن شيئاً فشيئاً بسبب اتساع الدولة الإسلامية،

(١) معجم الأدباء لياقوت، (١٤/١).

(٢) مراتب النحويين لأبي الطيب، ص ٦.

(٣) نزهة الألباء ص ٨، ومراتب النحويين، ص ٢٦.



وتزايد الاختلاط بين العرب وغيرهم، وما نكاد نصل إلى العهد الأموي حتى نرى اللحن يشتد شيوعاً وانتشاراً ليعم من عُرفوا بالفصاحة وقوة البيان كالحجاج بن يوسف الثقفي الذي عدّه الأصمعي من الأربعة الذين لم يلحنوا في جد أو هزل وأنه أفصحهم^(١)، وإليك حادثة واحدة لنرى مدى ما كان يبيده الناس من ازدراء للحن: قال ابن السلام: «أخبرني يونس بن حبيب، قال الحجاج لابن يعمر^(٢): أتسمعني ألحن؟ قال ابن يعمر: حرفاً، قال الحجاج: أين؟ قال ابن يعمر: في القرآن، قال الحجاج: ذلك أشنع، فما هو؟ قال ابن يعمر: تقول: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]، قرأها برفع كلمة «أحب» والصواب نصبها لأنها خبر كان، وكان السبب في هذا الخطأ طول الكلام بين اسم كان وخبرها لكثرة المعطوفات، قال ابن سلام: وأخبرني يونس، قال: فقال الحجاج لابن يعمر: لا جرم لا تسمع لي لحنأ أبداً، قال يونس: فألحقه بخراسان^(٣)، وهذا كله من الارتباط الوثيق بين العربية والقرآن الكريم المصدر الأول للشريعة الإسلامية، فالمحافظة على اللغة محافظة على القرآن، لأن المحافظة على كتاب الله تستوجب صيانة اللغة التي هي أداة فهم أحكامه، ومعرفة بعض أسرار إعجازه.



- (١) نشأة النحو للشيخ محمد الطنطاوي ص ١٧، وهؤلاء الأربعة هم: الحجاج، وعبدالله بن مروان والشعبي وابن القربة.
(٢) هو يحيى بن يعمر النحوي، من الطبقة الأقل من نحاة البصرة.
(٣) في أصول النحو، الأفغاني ص ١٠، والكوكب الدري للأسنوي، ص ١٨.

دور اللغة في الكشف عن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم

صلة الحروف والألفاظ بالمعاني في القرآن الكريم

إن حروف اللغة وألفاظها في القرآن الكريم تحذو حذو المعاني إلى حد لا يمكن أن يكون في غير هذا الكتاب العزيز، فهو في القرآن الكريم كامل ومطرد لأنه كلام الله: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وسأكتفي بقليل من الأمثلة التي تشير ولا تستقصي في الحرف الكلمة في القرآن الكريم لنرى من خلال الأمثلة مدى حاجة طالب الشريعة إلى معرفة هذه اللغة التي لا يكشف عن بعض إعجاز القرآن إلا بها.

أولاً: لفظ الجلالة في النداء:

لنبداً باللفظ الكريم لفظ الجلالة (الله) في النداء والدعاء، في القرآن الكريم: لم يرد لفظ الجلالة في النداء والدعاء مجرداً من حرف الميم في آخره في القرآن الكريم، ولكنه ورد خمس مرات متصلاً به حرف الميم في الدعاء ليصبح «اللهم» كقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدُكَ الْغَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١) [آل عمران: ٢٦] ولا يستعمل هذا اللفظ إلا في الدعاء والطلب فلا يقال: «اللهم غفور رحيم» بل يقال: «اللهم اغفر وارحم»

(١) آل عمران: ٢٦، والمائدة: ١١٤، والأنفال: ٣٢، ويونس: ١٠، والزمر: ٤٦.



والأصل «الله» ثم زيد حرف الميم على لفظ الجلالة ليصبح «اللهم» والآن لنسأل أنفسنا: ما السر في زيادة حرف الميم على لفظ الجلالة؟ وما أثره في المعنى والدلالة يا ترى؟

يجيب علماء النحو عن هذا التساؤل بأن الميم تزداد على لفظ الجلالة دون سواه من الأسماء الحسنى في الدعاء والطلب، عوضاً عن حرف النداء «يا» ولذلك لا يجيزون الجمع بين الميم في آخر لفظ الجلالة في الدعاء وهو حرف العوض، وبين ياء النداء قبل لفظ الجلالة وهو المعوض عنه، لأنه جمع بين العوض والمعوض عنه، وهذا لا يأتي إلا في الشاذ أو النادر، وعلى هذه الندرة أو الشذوذ جاء قول أمية بن أبي الصلت:

إنني إذا ما حدث أَلَمَّا أقول يا اللهم يا اللهم
وعلى هذا جاء قول ابن مالك في ألفيته:

والأكثر «اللهم» بالتعويض وشذ «يا اللهم» في القريض^(١)

ويسمى ما كان من هذا الضرب عوضاً لأنه في غير محل المحذوف، وأما الضمة التي على الهاء فهي ضمة الاسم المنادى المفرد، وأما فتحة الميم مشددة فليسكونها وسكون الميم التي قبلها، وهذا من خصائص هذا الاسم وهو اسم الجلالة، فلا تأتي هذه الميم المشددة عوضاً عن حرف النداء في غيره من أسماء الله الحسنى.

ولنعد للتساؤل من جديد: لماذا زيدت الميم المشددة عوضاً عن حرف النداء؟ ولماذا اللجوء إلى الحذف والتعويض، والحرف المحذوف هو أشهر حروف النداء «يا»؟ بل لماذا التعويض والحذف جائز في حروف النداء من غير تعويض، وهو كثير في الكتاب الكريم كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣]، فقوله تعالى في أول

(١) شرح ابن عقيل (٣/ ٢٦٥).

الآية الكريمة: ﴿رَبَّنَا﴾ منادى بحرف نداء محذوف والتقدير يا ربنا، ولماذا كان التعويض بحرف الميم بالذات؟ وما أثر ذلك في المعنى والدلالة؟

يجيبنا عن ذلك كله علماء التفسير واللغة وعلى رأسهم الإمام ابن القيم في تفسيره القيم المسمى (التفسير القيم) ما خلاصته^(١): إن الميم حرف شفهي يجمع الناطق به شفثيه لذلك جعله العرب علماً على الجمع فقالوا للواحد: «أنت» فإذا أرادوا الجمع قالوا: أنتم، وقالوا للواحد الغائب: «هو» فإذا جاوزوه إلى الجمع قالوا: «هم».

وهكذا لو تأملنا كثيراً من الألفاظ التي فيها الميم لوجدنا الجمع معقوداً بها مثل: لَمْ الشيء: جمعه جميعه، وتم الشيء: كمل واجتمع له وافر الصفات، ولم الشيء: أصلحه وجمع متفرقه، وقالوا: سمي الرمان بهذا الاسم لاجتماع حبه وتضامه.

ولذلك فإن إلحاق الميم في اسم الجلالة «اللهم» الذي يسأل العبد به ربه في كل حال يؤذن بجمع القلب عند التوجه إلى الله بالسؤال والدعاء، وبهذا التوجه الذي يجمع كل شتات النفس يصبح الداعي من عباد الله الذين أضافهم إلى نفسه، والذين يستجيب لهم إذا دعوه لأنه من عباده الذين وعدهم بالإجابة، مصداقاً لقوله جل من قائل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

كما أن إلحاق الميم باسم الجلالة عند الدعاء يؤذن بجمع أسمائه تعالى وصفاته، فإذا قال السائل: اللهم إني أدعوك، فكأنه قال: أدعو الله الذي جمعت له الأسماء والصفات الحسنى، لأن الإتيان بالميم في آخر اسم الجلالة يُذكر الداعي باستحضار أسماء الله وصفاته عند الدعاء، فلفظ «الله» يدل على الذات والميم دالة على الصفات^(٢).

(١) التفسير القيم، ص ٢٠٢.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص ٢٠٨.



مصدر الفعل الرباعي في الكلمة القرآنية وأثره في الدلالة

اتفق علماء اللغة على أن مصدر الفعل الرباعي المجرد والمزيد هو مصدر قياسي، فمصدر الرباعي المجرد يأتي على وزنين هما: «فَعَّلَلَة» و«فَعْلَان» سواء كان الفعل مضعفاً أو غير مضعف، فالمضعف ما كان الحرف الأول والثالث، والحرف الثاني والرابع من جنس واحد مثل: «زلزل» و«وسوس» فقياس المصدر من هذا النوع يكون: «زلزلة» و«زلزال» و«وسوسة» و«وسواس» وأجازوا في النحو «زلزال» بفتح أوله وكسره^(١).

بعد هذا العرض الموجز لما قاله علماء النحو في مثل هذا النوع من الأفعال والمصادر يمكن أن نتساءل: ما علاقة تكرار الحرف في مثل هذا النوع من الأفعال والمصادر بالمعنى والدلالة في الكلمة القرآنية؟ وللإجابة على هذا التساؤل نقف أمام كلمة «الوسواس» من سورة الناس: فالوسوسة: هي الإلقاء الخفي في النفس إما بصوت لا يسمعه إلا من ألقى إليه، وإما بغير صوت كما يوسوس الشيطان للإنسان، ومنه وسوسة الحلي: وهي حركته الخفية المتكررة بصوت معين، ولما كانت الوسوسة كلاماً يكرره الموسوس، ويؤكد له لدى من يلقيه إليه، روعي تكرير اللفظ بإزاء تكرير الفعل من الفاعل، فقال «وسواس»، وظل حرف السين في كلمات السورة من أولها إلى آخرها: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَهِ النَّاسِ ۝٣ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْغِيَةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ١ - ٦]، وليظل تكرير اللفظ بإزاء تكرير المعنى، جاء الإظهار في موضع الإضمار، فعندما قال الباري: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١﴾، كان المنتظر وقد أظهر في هذه الآية لفظ «الناس» أن يضمّر في الآيات التالية، فيأتي بعد ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١﴾:

(١) انظر شرح الأشموني، (٢/٣٥٠)؛ وأوضح المسالك، (٢/٢٦٣).

ملكهم، إلههم، كما نقول مثلاً: دخل محمد صديق خالد وزميله، ولا نقول: وزميل خالد، لأنه إذا ذكر الاسم أتينا بعده بضميره، ولكن في سورة الناس جاء الإظهار في موضع الإضمار، لأنه إعجاز البيان في أسلوب القرآن الذي: ﴿لَا يَأْنِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وذلك ليظل حرف السين في كلمات السورة من أولها إلى آخرها وكأنه صوت متصل يعمل على متابعة حركة اللفظ بإزاء المعنى، ونظير هذا كثير في الكلمة القرآنية التي كشفت عن عبقرية اللغة العربية، والتي لا نستطيع أن نتدبر كتاب ربنا إلا بها، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿كَتَبَ أَرْزَلَهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِّدَبْرُواْ بِأَيْدِيهِمْ وَلِيَسْتَذَكِّرَ أُولُواْ الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، فخذ مثلاً من سورة الزلزلة في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١]، فتحس بأن حركة اللفظ تصوّر حركة الأرض واضطرابها، وخذ مثلاً آخر في قوله تعالى: ﴿فَكَبِّكُواْ فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٩٤، ٩٥] فقد ورد في النص الكريم الفعل المضعف الرباعي «ككبوا» لأنه يصور المعنى أدق تصوير، فهو كبٌ بعد كب، فلو وضع الفعل «كَبُوا» بدلاً من الفعل «ككبوا» لما دلّ على التكرار في وقوع الفعل، وهكذا تحذو الكلمة القرآنية حذو المعنى إلى حد الكمال المطلق، ولا يمكن الوصول إلى هذه المعاني إلا بفهم وعائها وهي اللغة العربية.

التذكير في موضع التأنيث أو العكس

من العلامات التي تميز المذكر عن المؤنث تاء التأنيث، ولكن قد تحذف هذه التاء من موضع، ويبدو في الظاهر أنه ينبغي أن تذكر، أو العكس؛ فقد تذكر التاء في موضع ويبدو في الظاهر أنه ينبغي أن تحذف، ولكن الحذف في موضع الذكر أو الذكر في موضع الحذف في الكلمة القرآنية فيه سر بديع من أسرار هذا الكتاب الكريم الذي لا تنقضي عجائبه، وسنأخذ مثلاً واحداً من كل نوع من هذين النوعين:

النوع الأول: ما حذفت منه التاء، وكان ينبغي في الظاهر أن تذكر،



مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، فما الحكمة في تذكير كلمة «قريب» مع أنها خبر في الأصل عن كلمة «رحمة» والموافقة في التذكير والتأنيث بين المبتدأ والخبر واجبة كما يقول علماء النحو^(١)، فلماذا لم تكن: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ بتأنيث كلمة «قريبة» ليكون الاسم والخبر مؤنثين فيحصل التوافق بين اسم «إن» وخبرها بالتأنيث؟

لقد تولى علماء النحو مناقشة المسألة، وخرجوها على أوجه نافذة على اثني عشر وجهاً، ليس هنا موضع بسطها وبيان وجهة نظر كل باحث^(٢)، ولكننا نذكر بعضها بإيجاز، فقد اعتبرها بعض النحاة على تقدير حذف مضاف، أي: إن مكان رحمة الله قريب، ومنها صيغة «فعليل» يستوي فيها المذكر والمؤنث، أو أن كلمة «قريب» في الآية الكريمة صفة لموصوف محذوف، والتقدير: «إن رحمة الله شيء قريب» أو أن «قريب» خبر عن المضاف إليه وهو لفظ الجلالة، لا عن المضاف وهو كلمة «رحمة» أو أن صيغة «فعليل» هنا بمعنى النسب، فقريب في الآية معناه ذات قرب، أو أن المراد بالرحمة هنا المطر، وهو مذكر، إلى غير ذلك من الوجوه التي ذكرها العلماء في تخريج تذكير لفظ «قريب»^(٣)، ولكن ابن القيم بعد أن عرض هذه المسألة، وبيّن كل وجه وحجته وأوجه الاعتراض عليه فيما يقرب من عشرين صفحة في كتابه القيم «التفسير القيم» قال: «هذا تمام اثني عشر مسلكاً في هذه الآية أصحابها المسلك المركب من السادس والسابع، وباقيها ضعيف واه، والمبتدئ في النحو والتصريف لا يدرك هذه الدقائق، والفاضل المنصف لا يخفى عليه قوبها من ضعيفها»^(٤).

(١) انظر شرح ابن عقيل، المبتدأ والخبر (١/١٨٨).

(٢) انظر الأشباه والنظائر للسيوطي، (٣/١٤٧).

(٣) انظر كتاب «مسألة الحكمة في تذكير «قريب» لابن هشام»؛ تحقيق د. عبدالفتاح الحموز، ص ٣٤ وما بعدها.

(٤) التفسير القيم، ص ٢٧٧.

ومضمون المسلك الذي رجحه ابن القيم لما فيه من إعجاز في المعنى والدلالة يمكن أن نلخصه فيما يأتي:

إنه من باب الاستغناء بأحد المذكورين عن الآخر لكونه تبعاً له ومعنى من معانيه، فإذا ذكر استغني به عن ذكر المحذوف لأنه يفهم منه، وعلى ذلك يكون التقدير القائم على الإعجاز بالحذف في الآية الكريمة: «إن الله قريب من المحسنين، وإن رحمة الله قريبة من المحسنين» فهاتان جملتان اسميتان دخل عليهما حرف ناسخ «إن» ثم استغني بالخبر من الأولى وهو «قريب» وحذف ما كان مبتدأ، وهو لفظ الجلالة، واستغني بالمبتدأ من الثانية وهو «رحمة» وحذف ما كان خبراً فيها وهو «قريبة» بالتاء، والمسوغ لذلك الإعجاز الدلالي الذي يتضمنه حذف «التاء» هو أن إحسان المحسنين يستلزم قرب الله منهم، لا قرب رحمته فقط، لأن رحمة الله قريبة من المحسنين ومن غيرهم، أما قربه تعالى فلا يكون إلا من المحسنين، فقد ورد في الحديث الصحيح ما معناه: أن من تقرب إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة تقرب الله منه: فمن تقرب من الله ذراعاً تقرب الله منه باعاً، فقربه تعالى يستلزم قرب رحمته، وليس العكس، أي أن قرب رحمته لا يستلزم قربه تعالى، وكل هذا جاء به حذف التاء من «قريب» ولو لم تحذف التاء لما اتضح هذا المعنى الدقيق اللطيف، فلو قيل: «إن رحمة الله قريبة من المحسنين» بذكر التاء لما أفاد قربه تعالى منهم، لأن قرب رحمته لا يستلزم قربه، أما قربه تعالى فيستلزم قرب رحمته.

إذن فالإخبار عن قرب الله تعالى من المحسنين يكفي للإخبار عن قرب رحمته، وليس العكس، لأن قربه تعالى أخص من قرب رحمته، وهذا سرٌّ من أسرار حذف التاء من لفظ «قريب» في قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

النوع الثاني: ما ذكرت فيه «التاء» وكان من حقه في الظاهر أن



تحذف: معلوم أن تاء التأنيث تذكر للتفريق بين المذكر والمؤنث في محل اللبس، فإذا كانت الصفة خاصة بالمؤنث فلا حاجة لذكر التاء كما في قوله تعالى: ﴿وَكَاَنَتْ أَمْرًا قَائِرًا﴾ [مريم: ٥]، ولم يقل عاقرة، وكذلك كل وصف خاص بالأنثى مثل: حائض، وحامل، وطالق، فهذه الأوصاف وما شابهها أوصاف خاصة بالمرأة، لذلك لا تلحقها تاء التأنيث، ولكننا نقرأ في تصوير القرآن الكريم لهول يوم القيامة، والفرع الذي يلحق الناس في ذلك اليوم، نقرأ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج: ٢]، فقد دخلت تاء التأنيث على كلمة «مرضعة» في الآية الكريمة مع أنها وصف خاص بالمرأة فما السر في ذلك يا ترى؟ مع أن الوصف الخاص بالمرأة لا تلحقه التاء؟ المرضع: من لها ولد ترضعه، فإذا ألقيت الثدي للرضيع وصارت موصوفة بالرضاعة بالفعل سميت «مرضعة» وهي في هذه الحالة تكون في أشد حالات الحنان على وليدها، إذن دخول التاء كان لفائدة لا تحصل بحذفها، لأن المراد بالمرضعة فاعلة الإرضاع، لا مجرد الوصف، ولو أريد الوصف المجرد ل قيل «مرضع» كعافر وحامل، فقد تذهل المرأة عن رضيعها إذا كان غير مباشر للرضاعة، ولكنه إذا ألقيت الثدي أصبحت الأم في أشد حالات الحنان والتعلق، ومع ذلك تذهل عنه لشدة الهول يوم القيامة، كيف لا؟ وقد وصفه العظيم بأنه شيء عظيم ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾.

وهذا الفرق في الدلالة جاء من دخول التاء على وصف لا تلحقه التاء في الأصل: لأنه غير مشترك بين المذكر والمؤنث.

وأما «الحامل» في الآية نفسها، وهو وصف خاص بالأنثى، فلماذا لم تلحقه التاء لتصوير هول يوم القيامة كما لحقت كلمة «مرضعة»؟ للإجابة على هذا التساؤل نقول: مع أن كلا الوصفين «الحامل والمرضع» خاص بالمرأة، لكن هناك فرقاً دقيقاً بينهما جعل دخول التاء لتصوير هول يوم

القيامة صالِحاً على كلمة «مرضعة» دون كلمة «حامل» وهو أن المرأة الحامل لا تكون حاملاً بالفعل، أو بالقوة كما هو الحال في المرضع، لأن من لها رضيع في المهد ولكنها لا تلقمه الثدي الآن يطلق عليها «مرضع» بالقوة لا بالفعل، فإن ألقمته الثدي فهي «مرضعة» بالفعل، وهذا لا يتأتى في «الحامل» فلا تكون المرأة «حاملًا» إلا بالفعل، لذلك عليك أن تنظر بعين بصيرتك إلى الإعجاز البلاغي الذي جاء يصور هول يوم القيامة من خلال كلمة «حامل» كما صورته كلمة «مرضع» بعد أن دخلت عليها التاء: ﴿وَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ فما الحكمة في قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ﴾ ولم يقل كل حامل؟ الجواب أن ذات الحمل هي من ظهر حملها، وصلاح للوضع كاملاً، ولا يكون سقطاً، أما الحامل: فهي التي في أول حملها قبل أن يظهر ويصلح للوضع، ويمكن أن يكون سقطاً، ولما كانت الغاية تصوير هول يوم القيامة أتى في المرضعة «بالتاء» التي تحقق فعل الرضاعة دون التهيؤ له، وأتى في الحامل بالسبب الذي يحقق وجود الحمل على صورة وهيئة يبعد معها أن يكون سقطاً، ومع ذلك تضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد^(١)، هذا ولا نستطيع أن نترك آية الحج دون أن نتدبر كلمة «كل» أضيفت إلى مفرد في الموضعين، وهذا يعني أن الحكم فيهما كليّ يشمل جميع الأفراد لا مجموعهم، أي أن كل مرضعة أخذت ذلك الحكم، وكل ذات حمل، حتى شمل الحكم كل مرضعة وكل ذات حمل دون استثناء، قال صاحب «متن السلم» في الفرق بين الكل والكلي، والجزء والجزئي قال:

والكل حكمنا على المجموع ككل ذاك ليس ذا وقوع
وحيثما لكل فرد حكما فإنه كلية فلتعلما^(٢)

(١) انظر بدائع الفوائد (٤/٣١)؛ والتفسير القيم، ص ٢٠٨.

(٢) شرح متن السلم، ص ٣٥.



أي أن الحكم حينما يكون بلفظ «كل» مضافاً إليه الفرد، وليس المجموع، فإن معنى ذلك أن كل فرد قد تناوله الحكم، ومن ثم تعددت الأحكام بتعدد الأفراد دون استثناء أي فرد، وهذا كثير في كتاب الله الكريم وسنة رسوله ﷺ، كقوله تعالى في مثل ذلك: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، أن الموت ستعاني سكراته كل نفس، ويدوقه كل مخلوق، فهل يمكن الوصول إلى فهم هذه الحقائق القرآنية، بغير فهم هذه اللغة العربية؟

وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب كما يقول علماء الفقه وأصوله.

الترادف في الكلمة القرآنية

معلوم أن الترادف هو اختلاف اللفظ، مع اتحاد المعنى، وقد عني علماؤنا بموضوع الترادف في اللغة قديماً وحديثاً، وقضية الخلاف في وروده في اللغة قديمة كذلك، ودعوى ابن خالويه في مجلس سيف الدولة بأنه يحفظ للسيف خمسين اسماً، وإنكار أبي علي الفارسي عليه، وأنه لا يحفظ للسيف إلا اسماً واحداً هو السيف، وأما المهند والصارم وكذا وكذا فهي صفات.

كل هذا معلوم معروف، ولكن الذي نريد بيانه في هذا المقام، هو أن القرآن الكريم عندما يختار الكلمة إنما يختارها لأن فيها معنى ودلالة وإيحاء لا يكون في اللفظ المرادف، أو في الظاهر بدل المضمّر أو العكس.

وسأكتفي بعرض بعض النماذج من الألفاظ المترادفة، مع إلقاء بعض الأضواء عليها وبيان أثر العامل النحوي في دلالتها، وهذه الألفاظ هي: «القلب والفؤاد»، و«واحد وأحد» و«إن وإذا».

القلب والفؤاد

ورد لفظ «القلب» في القرآن الكريم مفرداً ومثنى وجمعاً، وقد جاء مفرداً في تسعة وعشرين موضعاً كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

ولم يأت بصيغة التثنية إلا في موضع واحد هو قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ

اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفَيْهِ» [الأحزاب: ٤٤]، وجاء بصيغة الجمع في مائة موضع وموضع كقوله تعالى: ﴿أَلَا يَذَّكَّرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، ولم يجمع على غير هذا البناء «فُعول» وهو من أبنية الكثرة القياسية.

وقد ورد في الكتاب العزيز بعدة دلالات، فقد جاء القلب بمعنى أداة التفكير، ومقر الهداية والإيمان، والرحمة والرأفة، والخوف والقسوة، والحسرة والغیظ، والشك والإنكار، والنفاق، كما وصفت بعض القلوب بالعمى، وبأنها في غمرة، وقد ختم الله عليها وطبع، واستخدمه القرآن مرادفاً للفؤاد والعقل واللب في آيات كثيرة.

أما «الفؤاد» فقد ورد في الكتاب العزيز مفرداً وجمعاً، جاء مفرداً في خمسة مواضع منها قوله تعالى يصور ما لحق بأم موسى عليها السلام حينما التقط آل فرعون ولدها، قال تعالى في تصوير ذلك: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَدِرْعًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠]، وورد الفؤاد بصيغة الجمع في أحد عشر موضعاً كقوله تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفَدَتْهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣].

وهذا الجمع على وزن «أفْعَلَة» وهو من أبنية القلة القياسية الأربعة، وهي مجموعة في قول الشاعر:

بِأَفْعُلٍ وَأَفْعَالٍ وَأَفْعَلَةٍ وَفُعْلَةٍ يَعْرِفُ الْآدَنَىٰ مِنَ الْعَدَدِ

ولكن مدلول القلة غير مراد هنا، لأنه قد يستغنى ببعض أبنية القلة عن بعض أبنية الكثرة بقرينة كالتعريف والإضافة والوصف^(١)، ولكن لا يستعمل «الفؤاد» مرادفاً للقلب إلا إذا لوحظ فيه معنى التوقد، يقال: فادت اللحم: شويته، ولحم فثيد: مشوي، وهذا هو الأصل في دلالة هذا اللفظ، واستعمال القرآن له يؤيد ذلك، فإن في مواضع وروده ملحظاً خاصاً من

(١) حاشية الصبان (١٢١/٤)



فضل تأثر أو حرقة أو تيقظ، ولذلك قرن بالسمع والبصر أو الأبصار لأنه منفذ من منافذ المعرفة^(١).

والآن فلنتأمل قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُرِ مُوسَىٰ فَرِحًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَىٰ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠]، فحين أراد تصوير ما حلَّ بأم موسى من فرط الجزع والحرقة على ولدها قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُرِ مُوسَىٰ فَرِحًا﴾ ومثله قوله تعالى: ﴿لَا يَزِدُّهُمْ طَرَفُهُمْ وَأَقْبَدَتْهُمْ هَوَاءً﴾ [إبراهيم: ٤٣]، فقد استعمل في تصوير ذلك كلمة «فؤاد» الذي هو من «التفؤد» وهو التوقد، وقد أتبع ذلك بوصفه بكلمة «فارغاً» لأن الخبر في الحقيقة عين المبتدأ ووصف له، ولكنها حين تذكرت وعد الله لها بقوله: ﴿إِنَّا رَأَدُّهُ إِلَىٰكَ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]، رُبط على قلبها بالتصبر كما يربط على الشيء المتفلسف ليقر ويطمئن، فلم يعد مناسباً أن يكون التعبير بكلمة «فؤاد» لأن ذلك كان عند الذهول والحرقة، وإنما المناسب أن يعبر بكلمة تدل على الاطمئنان، وهي كلمة «القلب» فكان الإظهار في موضع الإضمار فقال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُرِ مُوسَىٰ فَرِحًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَىٰ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ ولم يقل: لولا أن ربطنا عليه أي على فؤادها، لوجود مرجع للضمير، فكان هذا الإظهار في موضع الإضمار لأن التعبير بكلمة «فؤاد» كان عند الحرقة، وبكلمة «قلب» كان عند الاطمئنان، فكيف يمكن لطالب الشريعة أن يصل إلى هذا البيان المعجز إذا لم يطلع على فنون هذه اللغة، ويتفياً أفنانها؟ وصدق الله العظيم القائل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١].

أحد و واحد

أحد: اسم بني في الأصل لنفي ما يذكر معه من العدد تقول: ما جاءني من أحد، ولا يوصف بالأحد إلا الله، فلا يقال: رجل أحد لأن «أحداً» صفة

(١) انظر اللسان ومعجم ألفاظ القرآن «فأد».

۲۷۸



الآيتين للتعظيم، ونكر «أحد» للتعظيم كذلك، وفيها وجه آخر يفيد التعظيم أيضاً، وهو جعل لفظ الجلالة مبتدأ ثانياً مرفوعاً و«أحد» خبره، والجملة الاسمية في محل خبر «هو» ولم تحتج الجملة هنا لضمير يربطها بالمبتدأ لأنها عين المبتدأ، وفي هذا من التفخيم والتعظيم ما فيه، لأن من قاعدة التعريف والتنكير أن تعريف الطرفين يفيد أن الثاني هو عين الأول غالباً، وكذلك إذا كان الأول نكرة والثاني معرفة حملاً على العهد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِيدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۖ فَفَعَلِ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٦، ١٥].

أما إذا كانا نكرتين، فالثاني غير الأول غالباً كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤] فإن المراد بالضعف الأول النطفة، وبالثاني الطفولة، وبالثالث الشيخوخة.

أما إذا كان الأول معرفة، والثاني نكرة فيتوقف الأمر على القرائن، فتارة يختلفان كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُثْبِتَا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]، فالساعة الأولى القيامة، والثانية الجزء المعروف من الزمن. وتارة تقوم القرينة على اتفاقهما كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٨، ٢٧]، فكلمة «القرآن» الأولى معرفة، والثانية نكرة وهما بمعنى واحد، وهذا كله من كنوز هذه اللغة التي بها وحدها تفهم النصوص الشرعية، ويعرف بعض أوجه الإعجاز في هذا الكتاب العزيز، الذي لو تحول الشجر إلى أقلام والبحور إلى مداد ما نفذت كلمات الله لأن الشجر والبحر محدود، وكلمات الله، وعلمه، وقدرته بلا حدود، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [القمان: ٢٧]، وتلاحظ أن الآية الكريمة أفردت كلمة «شجرة» ليكون الحكم كلياً عاماً كما مرّ بيانه، ثم

جرت بـ «من» المؤكدة وذلك لتأكيد العموم، فسبحان من أنزل كتابه بهذه اللغة، وجعله كاملاً من كل وجه، وصدق الله العظيم في وصفه: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

إِنْ وَإِذَا

إِنْ وَإِذَا يتفقان بأنهما أداتا شرط، ولكل منهما شرط وجواب ولكنهما تختلفان في الحقيقة والعمل والدلالة:

أولاً: من حيث الحقيقة والعمل:

«إِنْ» من الحروف التي تجزم فعلين مضارعين، الأول فعل شرط والثاني جوابه وجزاؤه، نحو «إِنْ تَجْتَهِدْ تَنْجُحْ» فقد جزمت الفعلين الأول «تَجْتَهِدْ» وهو فعل الشرط، والثاني «تَنْجُحْ» وهو جواب الشرط وجزاؤه لأنه متوقف عليه، ومتسبب عنه.

«إِذَا» من أسماء الشرط غير الجازمة، وهي ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه، منصوب بجوابه، أي أن جملة الشرط في محل جر بالإضافة وجواب «إِذَا» هو الذي يعمل بها النصب، هذا من حيث الحقيقة والعمل.

ثانياً: من حيث الدلالة:

«إِنْ» تستعمل في الظن والتوقع، والأمر المشكوك فيه، كقولك «إِنْ تَأْتِنِي أَكْرَمُكَ» فالمجيء ليس مقطوعاً به، ولذلك لا يقال «إِنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ أَتَاكَ» لأن طلوع الشمس أمر متيقن لا بد من وقوعه، فلو أدخلت «إِذَا» على هذا التركيب صحت الجملة، لأن «إِذَا» تدخل على متيقن الوقوع، قال سيبويه: «لو قلت: آتِيكَ إِذَا أَحْمَرُ الْبُشْرِ، كان حسناً، ولو قلت: آتِيكَ إِنْ أَحْمَرُ الْبُشْرِ كان قبيحاً»^(١)، وما دام الْبُشْر لا بد أن يحمر ليصير رطباً، كان استعمال «إِذَا» أصح وأحسن.

(١) الكتاب (١/٤٣٣).



بعد هذا البيان الموجز لكل من «إن»، و«إذا» في الحقيقة والعمل والدلالة نود أن نرى ذلك من خلال آية قرآنية كريمة وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَّ بِهَا وَإِن تَصُبُّهُمْ سَيِّئَةً يَمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨]، انظر كيف أتى عند ذكر الرحمة المحققة الوقوع لأنها من الله تعالى بـ «إذا» وأتى بالجملة مؤكدة بـ «إن» وباسمية الجملة ثم أتى بالضمير «نا» الدال على التعظيم، والعائد على الله تعالى مرتين، إحداهما كانت اسماً لـ «إن» والثانية فاعلاً للفعل «أذقنا»، ثم أتى بجانب الرحمة بالفعل الماضي الدال على تحقق الوقوع «أذقنا» وهذا الفعل يدل على مباشرة الرحمة لهم بأشد أنواع الملابس وأخصها، وهي الذوق، ثم أتى في الرحمة بـ «من» التي لابتداء الغاية، وجعل مجرورها ضمير التعظيم العائد على الله تعالى، ثم هي ومجرورها مقدمان على الرحمة لإفادة القصر «منا رحمة».

ولكن عند إصابة العذاب أتى بـ «إن» الدالة على الأمر المشكوك بوقوعه، لأن الله يعفو بمرته وفضله عن كثير أليس هو القائل ﷻ: ﴿وَيَقْفُؤْا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، ثم انظر كيف أتى عند إصابة السيئة بالفعل المضارع الذي لا يدل على تحقق الوقوع كالماضي الذي سبق في الرحمة، ثم أتى عند إصابة السيئة بالباء السببية أي بسبب ما كسبه أيديهم، ثم جاء التعبير عند إصابة السيئة بالجملة الفعلية من غير توكيد، على عكس ما جاء في الرحمة التي عبر عنها بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والدوام، والمؤكد بأكثر من توكيد كما بينا^(١). فتبارك الذي جعل هذه اللغة - دون سواها من لغات البشر - جعلها قادرة على التعبير عن وجوه الإعجاز في هذا الكتاب المبين.



(١) انظر تفسير الكشاف، (٣/ ٤٨٤)؛ وابن القيم وحسنه البلاغي في تفسير القرآن، ص ٥٦.

دور الصرف العربي في الكشف عن الدلالة في الكلمة القرآنية

إذا كان النحو العربي يختص بضبط آخر الكلمة العربية، ويظهر عبقرية لغة القرآن، وتمييزها عن بقية اللغات بكونها لغة معربة تتغير فيها دلالة الكلمة بحسب موقعها من الجملة وهي مركبة مع غيرها، ليكون آخرها على ما يقتضيه منهج العرب في كلامهم، من رفع، أو نصب، أو جر، أو جزم، أو بقاء على حالة واحدة وهو ما يسمى بالبناء، إذا كان هذا هو دور النحو، فإن الصرف يبحث فيما يجب أن تكون عليه بنية الكلمة قبل انخراطها في الجملة، لتكون على هيئة خاصة، ووزن معين، وهو أيضاً من خصائص لغتنا الجميلة، خذ مثلاً: الكاف، والتاء، والباء «فإنك تستطيع بالتحويل الداخلي، والسوابق، واللواحق أن تحصل على كم هائل من المشتقات مثل: كَتَبَ، يَكْتُبُ، اكْتُبْ، كاتبٌ، مكتوبٌ، كتاب، كُتِبَ، مكتبةٌ... إلخ، وكل هذه المشتقات أصولها وجذورها واحدة وهي: ك، ت، ب»^(١).

ولكن دلالة كل مشتق تختلف عن دلالة المشتق الآخر، قال ﷻ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنُتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْمَكْدَلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ إِلَىٰ أَنْ يَقُولَ تَعَالَىٰ فِي الْآيَةِ نَفْسَهَا، وهي أطول آية في القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَفْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

(١) انظر التطبيق الصرفي ص ٧٥ وما بعدها.



تلاحظ أن هذه الآية الكريمة قد جمعت عدة مشتقات جذور الكاف والتاء والباء، ولكن كل مشتق يحمل معنى يختلف عن الآخر، وتلاحظ ورود كلمة «أقسط» في الآية الكريمة، ومعناها «أكثر عدلاً» وهي مأخوذة من قَسَطَ الثلاثي، وهو من الأضداد، فقد ورد بمعنى الجور والظلم في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥]، فالقاسطون اسم فاعل من قسط، أي أن قسط تأتي بمعنى عدل، وبمعنى ظلم، ولا يختلفان إلا في المصدر، فقسط يقسِطُ قِسْطاً بكسر القاف في المصدر: عدل، وقسط يقسط قِسْطاً بفتح القاف «وقُسوطاً: جار وحاد عن الحق، فإذا زيدت الهمزة في أوله صار بمعنى عدل فقط»^(١)، قال تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، والآن سنأخذ صيغة واحدة هي «فَعَلَّ» لنطلع على دلالاتها بعد التضعيف.

صيغة «فَعَلَّ» ودلالاتها في القرآن الكريم

تكوين بناء «فَعَلَّ»:

يتكون هذا البناء من ثلاثة أحرف أصلية هي: فاء الكلمة، وعين الكلمة، ولام الكلمة، يضاف إليها حرف رابع هو تضعيف العين نحو «سَبَّحَ» في قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١].

ونلاحظ أن تضعيف العين في الفعل «سَبَّحَ» كان مع وجود أصول الكلمة الثلاثة وهي «السين» و«الباء» و«الحاء» وهذا يدل على أن التضعيف زائد ولذلك يعرف هذا البناء بأنه: الثلاثي المزداد بتضعيف العين، أي: لا بد أن يكون مع التضعيف ثلاثة حروف أصلية، فإن كان مع حرفين أصليين فقط فهو أصل من أصول الكلمة، وليس زائداً، مثال ذلك قوله جلَّ من قائل: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ﴾ [الفتح: ٢٤]، فتضعيف

(١) محيط المحيط، قسط.

العين في الفعل «كَفَ» ليس زائداً لأن إحدى الفاءين عين الكلمة، والثانية لام الكلمة، ولذلك وزنه «فَعَلَ» وليس «فَعَّ» وقد ورد هذا البناء في القرآن الكريم متعدياً ولازماً، فمثال المتعدي قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢]، فكلمة «الأرض» في الآية الكريمة تعرب مفعولاً به للفعل «فَجَّرَ»، ومثال اللازم قوله تعالى في الآية السابقة ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١] فالفعل «سَبَّحَ» فعل لازم ليس له مفعول به، و«ما» اسم موصول مبني في محل رفع فاعل.

بعد هذا البيان الموجز لبناء «فَعَلَ» وكيف يتكون، نود أن نتبع دلالاته في القرآن الكريم لنرى كيف تتعدد، ولا يمكن الوصول إليها إلا بهذه اللغة السمحة.

أولاً: التكثير: وهو الغالب في هذا البناء^(١)، وهذا التكثير قد يكون في الفعل، وقد يكون في المفعول، مثال التكثير في الفعل كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتُهُ وَقَطَعَنْ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣١]، أي: جرحن أيديهن جروحاً كثيرة، وهذا فهم من تضعيف العين حيث قال: «قَطَعْنَ» ولم يقل «قَطَعْنَ». ومثال التكثير في المفعول: قوله ﷺ: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْمَنَاقِبِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩]، وكقوله ﷺ: ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]، فزيادة التضعيف دلّت على كثرة المفعول وهو الأبناء المذبوحون، كما دلّت في الآية الثانية على كثرة الأبواب المغلقة، لذلك لا يقال «غَلَقَتِ الباب» بالتضعيف لعدم تصور الكثرة في المفعول، إلا إذا أغلقت باباً واحداً مراراً، وبهذا يظهر الفرق بين التكثير في أصل الفعل، والتكثير في المفعول، وقد يكون التكثير في الفاعل ولم أجد له مثلاً في الكتاب العزيز، وقد مثل له علماء النحو بقولهم: «مَوْتَتِ الإِبِلَ، وَجَرَّبَتِ» أي كثر فيها الميْتُ والأجرب^(٢).

(١) انظر جامع الدروس العربية، (١/٢٢٣).

(٢) انظر شرح الشافية (١/٩٣)؛ والصاحي، ٢٢٢.

ومع ذلك فإن اللغة لا توصل أبوابها الواسعة في الاستعمال، فقد يراى ببناء «فعل» المجرى الكثرة والمبالغة في العمل، ولكنها دلالة تضمن، أو دلالة التزام، يوضحها ويجليها المقام، كقول الفرزدق:

ما زلت أفتح أبواباً وأغلقها حتى أتيت أبا عمرو بن عمار

فقد جاء المضارع «أفتح» من «فتح» مع أن المفتوح جمع أبواب وليس باباً واحداً، وهذا كثير وجائز، وإن كان بالتضعيف أحسن وألصق بالمعنى^(١).

ثانياً: تأتي بمعنى «أفعل»:

لقد ورد في القرآن الكريم بناء «فعل» بتضعيف العين متفقاً في دلالاته مع بناء «أفعل» بزيادة الهمزة في أوله قال تعالى: ﴿وَلَن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا زَكَّأَ عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

وقال عز من قائل: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، والأصل أن هناك فرقاً بين الإنزال والتنزيل وهو أن التنزيل يشير إلى ما كان مفرقاً ومرة بعد أخرى، وأما الإنزال فعام يشمل ما كان مفرقاً، وما كان دالاً على الإنزال دفعة واحدة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، وقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، وإنما خُصَّ هنا لفظ الإنزال دون التنزيل، لما رُوِيَ أن القرآن الكريم نزل دفعة واحدة إلى سماء الدنيا ثم نزل منجماً، من هذا يتضح أن الإنزال أعم من التنزيل وأن بينهما عموماً وخصوصاً مطلقاً يجتمعان في التنزيل وينفرد الأعم وهو الإنزال^(٢).

ثالثاً: مخالف لـ «أفعل» نحو: «فرط» و«أفرط»، ففرط: قصر، وأفرط:

(١) انظر أدب الكاتب، ص ٣٥٤.

(٢) المفردات في غريب القرآن / نزل.

جاوز الحد: قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا قَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، أي: قصرت في حق الله.

وأما بناء «أفعل» فالذي ورد منه في القرآن جاء بصيغة اسم المفعول في وصف أهل النار بأنهم متروكون فيها منسيون، قال تعالى: ﴿لَا جَرَءَ أَنْ لَهُمُ النَّارَ وَأَنْتُمْ مُقَرَّبُونَ﴾ [النحل: ٦٢]، وقيل: معناه مقدمون إلى النار قبل غيرهم، وهو مأخوذ - على هذا الرأي - من قولهم: أفرطت فلاناً إلى كذا: قدمته إليه، والقول الأول منسوب إلى مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم^(١).

رابعاً: جاء «فَعَلَ» المضعف بمعنى «فَعَلَ» المجرد وبمعنى «أفعل»؛ تقول: بَكَرَ إلى الشيء بكوراً من باب دخل: أتى إليه بكرة، وهي أول النهار، أو أسرع إليه، ومثله «بَكَرَ» بتضعيف العين تكبيراً، وأبكر إيكاراً.

ولم يرد من هذه المادة فعل مجرد أو مزيد في القرآن الكريم وإنما الذي ورد منها البكرة والإبكار وكلاهما بمعنى واحد وهو مقابل العشي، وقد ورد لفظ «البكرة» في موضعين كقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١]، مقابل العشي، ووردت في مقابل الأصيل في أربعة مواضع، كقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢]، وجاء لفظ «الإبكار» في موضعين مقابل العشي كالبكرة؛ قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: ٤١]^(٢).

خامساً: أن يأتي بناء «فَعَلَ» مخالفاً لـ «فعل» المجرد، وذا دلالة مستقلة كقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]. وقد ورد هذا البناء بهذه الدلالة في مواضع كثيرة من كتاب الله، وهي المحادثة والمخاطبة، وأما «كلم» المجرد فهو من «كَلَّمَهُ يَكَلِّمُهُ» كضرب ومعناه: جرح، وهذه الدلالة

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير، (٢/ ٣٣٥).

(٢) وانظر أيضاً غافر: ٥٥.



مختلفة عن معنى المخاطبة، وقد يستعمل «كَلَّمَ» المضعف بمعنى «جَرَحَ» تقول: كَلَّمَهُ تَكْلِيماً: جرحه على سبيل الحقيقة أو المجاز، فالتضعيف في هذه الحالة يكون للمبالغة أو التكثير، وباللغتين وردت آية النمل في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ [النمل: ٨٢] فتح التاء وتخفيف اللام في بعض القراءات، والمعنى على هذه القراءة أن الدابة تنكت في وجه الكافر نكتة سوداء فيفشو السواد في وجهه، وتنكت في وجه المؤمن نكتة بيضاء فينتشر البياض في وجهه كله^(١).

سادساً: أن يأتي التضعيف في بناء «فَعَّلَ» للتعدية، وهي انتقال الفعل بالتضعيف من اللزوم إلى التعدي، وهو كثير في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩]، فالفعل «برَّاه» تعدى للضمير المتصل به، فهو في محل نصب مفعول، ولكن المجرد منه لازم؛ تقول: برىء من الشيء كـ«علم»: سلم منه^(٢)، وهذا كثير في القرآن الكريم لأن زيادة التضعيف على الثلاثي المجرد الغالب فيها أن تكون للتعدية مثل: حَرَّمَ عليكم، وحَرَّمَهُ عليكم، وثَبَّتَ في المكان، وثَبَّتَهُ غيره إلخ.

سابعاً: يأتي بناء «فَعَّلَ» بمعنى «تَفَعَّلَ»؛ قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢]، أي: ما صرفهم عن التوجه إلى بيت المقدس، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَكَتَ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَهُنَالِكَ الْخَرْتُ وَالْأَسْلُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أي: انصرف وأدبر. ففي هاتين الآيتين الكريمتين جاء «ولَّى» و«تَوَلَّى» بمعنى واحد فكلاهما بمعنى الانصراف والبعد لكن «فَعَّلَ» متعدٍ و«تَفَعَّلَ» لازم^(٣).

- (١) انظر تفسير الكشاف (٣/١٦٠)؛ ومعجم مفردات ألفاظ القرآن «الأصفهاني» ومعجم ألفاظ القرآن الكريم، «مجمع اللغة العربية» والصحاح «كلم».
- (٢) انظر الصحاح، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم المجمع «برأ».
- (٣) انظر اللسان «فزع» والمصحف الميسر ص ٥٦٦.

ثامناً: أتى «فَعَلَ» في القرآن الكريم للدلالة على السلب والإزالة؛ كقوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبا: ٢٣]، ومعنى فُزِعَ عن قلوبهم: أزيل الفزع وهو الخوف عن قلوبهم، وقد اعتبر ابن الأنباري هذا اللفظ من الأضداد فقال: «المفزع»: الشجاع و«المفزع»: الجبان، قال الفراء: إذا قيل للشجاع «مفزع» فمعناه تُوقَعُ به الأفزع، وإذا قيل للجبان «مفزع» فمعناه يَفْزَعُ من كل شيء، ثم أورد الآية الكريمة^(١).

تاسعاً: أتى هذا البناء لاختصار الجمل؛ كقوله تعالى: ﴿وَكَبِيرَةٌ تَبْكِيًا﴾ [الإسراء: ١١١]، ومثل هذا كثير جداً في القرآن الكريم، ومعنى «كَبُرَ فلان ربه تكبيراً» أي: قال: الله أكبر تعظيماً له سبحانه^(٢).

عاشراً: دخول الفاعل في الوقت الذي يشتق منه الفعل، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي ثَمُودَ عَذَابًا مُسْتَقَرًّا﴾ [القمر: ٣٨]، أي: أتاهم العذاب وقت الصباح حتى أهلكهم.

الحادي عشر: جعل المفعول بقدر الفعل نحو «قَلَّلَ» و«كَثَّرَ»؛ قال تعالى: ﴿وَقَلَّلْنَا فِي أَغْيُنِهِمْ يَقْنُيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَتْ مَفْعُولاً﴾ [الأنفال: ٤٤]، وقال ﷻ: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَرْتُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦]، والقلة في الآية الأولى والكثرة في الآية الثانية وصف للضمير «كُم» وهو في محل نصب مفعول به^(٣).

الثاني عشر: تسمية المفعول بالفعل، أو نسبته إليه، كقوله تعالى: ﴿وَلِنْ يَكْذِبُونَكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ [الحج: ٤٢]، أي: نسبوا إلى أنبيائهم الكذب ووصفوه به ظلماً وعدواناً^(٤).

(١) انظر كتاب الأضداد لابن الأنباري ص ١٩٩ وما بعدها.

(٢) انظر الكتاب (٢/٢٣٣)؛ وشرح ابن عقيل (٢/٦٠١).

(٣) انظر شرح الشافية (١/٩٣)؛ وأبنية الصرف في كتاب سيبويه ص ٣٩٤.

(٤) انظر فقه اللغة للثعالبي ص ٥٥٠، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم «كذب».



الثالث عشر: قد يأتي بناء «فَعَلَ» لا يراد بها أي معنى مما تقدم، وإنما هي لمجرد نسبة الفعل للفاعل مثل «عَلَّمَتْه» و«سَوَّيْتَهُ» قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ٣١]، وقوله ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]، وليس المراد في مثل هذا التكثير أو غيره، وإنما المراد نسبة الفعل لفاعله، وهذا كثير في كتاب الله العزيز.

هذه صيغة واحدة عشنا معها، وتتبعناها في كتاب الله لنصل إلى دلالاتها ومعانيها بسبب زيادة التضعيف، فهل يمكن فهم هذه الدلالات من غير معرفة الأبنية الصرفية ودلالاتها، وصدق الله العظيم القائل: ﴿كَتَبَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُمْ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].



الضعف في النحو واللغة أسبابه وطرق علاجه

لقد شاع بين المتعلمين في المراحل المختلفة وبخاصة في الجامعات أن اللغة العربية وبخاصة النحو والصرف تتسم بالصعوبة والتعقيد، فما أسباب ذلك؟ وما العلاج؟

وهل صحيح أن النحو والصرف معقد إلى هذا الحد؟

وللإجابة على ذلك نقول وبالله التوفيق:

نسلم من أول الطريق بوجود الضعف في النحو والصرف بين كثير من طلاب الجامعات وبخاصة طلاب الشريعة، وأقول الكثير لا الجميع لأن بعض أبنائنا يبدعون في النحو واللغة، وبعض هؤلاء من طلاب البعث، والعربية ليست لغتهم الأصلية.

ويتهم النحو بالصعوبة أكثر من غيره من فروع اللغة لأنه يخاطب العقل أكثر من غيره، ولأن الضعف فيه يظهر على لسان القارئ، وقلم الكاتب، أما الضعف في بقية فروع اللغة فلا يكشف الضعف فيه عن نفسه كما هو الحال في النحو، فمثلاً علم العروض، ما أقل من يعرفونه، ويتمتعون بأذن موسيقية، وكذلك النقد والموازنة بين النصوص، وبيان أسرار البلاغة فيها، ولكن هذا كله مختفٍ مستور، لأنه لا يظهر عند القراءة أو الكتابة، كما هو الحال في النحو، ولذلك بدا الضعف فيه وظهر، وأما في غيره فقد اختفى واستتر، ويرجع ذلك إلى أسباب علينا معرفتها، ووضع الحلول لها، من هذه الأسباب:

مكانة اللغة:

يجب أن يُغرس في نفوس الأبناء حب لغة القرآن، ومعرفة مكانتها، وأن يُبين لهم أنها قيمة دينية، وأنها اللغة التي اختارها الله من بين لغات

العالمين ليضع فيها رسالته العالمية التي جاءت لخير الأمم جميعاً، وأنزل فيها كتابه، وجعلها لغة البيان، وبهذا يقبل المتعلم على اللغة ويتقنها، وبهذا الدافع الديني نبغ فيها من ليسوا عرباً في الأصل، ولكن الإسلام عربهم، والإيمان قربهم، فسيبويه أبو النحو العربي، وصاحب الكتاب المسمى «الكتاب»، والجرجاني أبو النظم والذوق البلاغي، والبخاري صاحب أصح كتاب بعد كتاب الله، كل هؤلاء وغيرهم كثير نبغوا في هذه اللغة عندما استقر في قلوبهم أنها من الدين، وأنها لغة القرآن الكريم، وأن الإعراب فرع المعنى، وأن تغيير حركة يفسد المعنى كما في قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٣]، إذا قرئت بجر كلمة «رسوله» كما بيئنا ذلك في أول البحث، وأن هذا الخطأ كان أحد أسباب وضع النحو^(١).

موقف بعض المستشرقين من النحو العربي:

لا نريد هنا أن نقف من الاستشراق موقف المؤرخ والمحلل لوجوده ودوافعه وأهدافه وغاياته، وكيف نفذ إلى تراثنا، وبيان جهود بعض المستشرقين التي أثرت التراث اللغوي، وغير اللغوي، أو السموم التي نفثها بعضهم، فلهذه الدراسة مجالها، ولذلك سيكون حديثنا في هذا البحث مقتصرأ على موقف بعض المستشرقين، ومن تبنى آراءهم من المستغربين من النحو والصرف، وما نتج عن ذلك من شعور بأن النحو والصرف معقدان، يقول «هنري فلش» في كتابه «التفكير الصوتي عند العرب»: «يجمع علماء النحو العربي على أن الواقع اللغوي يخلق القانون، فما كان موجوداً في العربية هو الذي خلق الضرورة المطلقة، أي: القاعدة في المصطلح النحوي، وإنما كان ذلك لأن اللغة العربية كانت في نظر النحوي المسلم قيمة مطلقة من حيث كانت أساساً للتعبير عن المطلق، عن المعرفة الإلهية في القرآن الكريم»^(٢)، يقول ذلك في مجال نقده

(١) انظر نزهة الألباء ص ١ - ٥؛ وإنباه الرواة إلى أنباء النحاة (٩/١).

(٢) التفكير الصوتي عند العرب في ضوء سر صناعة الإعراب، ص ٥٢.

للنحاة والنحو، ويعلل لنقده بقوله: «إن النحاة العرب بهذا يمنعون وجود واقع لغوي جديد غير ما هو واقع، كأن يبدأ العربي في يوم من الأيام بمصوت صامت»^(١)، هذا نموذج مما أورده هذا المستشرق ناقداً فيه النحاة والنحو العربي، والذي يقرأ هذا القول يظن لأول وهلة أنه يقوم على النظر والاستدلال، ولكنه بعد النظر يتبين أن في كلامه رداً على كلامه، ففي قوله: «اللغة في نظر النحوي المسلم قيمة مطلقة لأنها أساس للتعبير عن المطلق؛ عن المعرفة الإلهية في القرآن الكريم» في هذا القول حق أريد به باطل، الحق أن أسلوب القرآن الكريم أسلوب مطلق فعلاً، فالنحوي العربي وضع القاعدة بناء على واقع لغوي قرآني يستحيل أن يأتي الإنسان بمثله في تطوره، فإذا وضع النحوي القاعدة على هذا الأساس، فقد وضعها على أساس ثابت، لأنه لا يخضع للأسلوب الإنساني الذي يسير على خط لولبي صاعد يتغير ويتطور، أما القرآن فهو ليس كذلك، فالواقع اللغوي القرآني قد بلغ الغاية في كماله، لأنه لم يسر على النمط الإنساني في التطور، فهو من قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝﴾ [الملق: ١] إلى قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣]، كله يسير بخط أفقي راقٍ ليس فيه ذبذبة تدعو إلى التطوير والتغيير، لأنه لا اختلاف فيه، ولذلك فإن النحوي العربي لا يستطيع أن يوجد واقعاً لغوياً أرقى، أو مساوياً لما هو واقع في القرآن الكريم^(٢).

وما أروع قوله تعالى في هذا المقام: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فقوله تعالى: ﴿مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ﴾ هو تعبير بالنقيض يعم غير المنقوض، أي من عند ما سوى الله، وهو كل مخلوق، وقد جاء هذا في متن السلم في علم المنطق وهو قوله:

تناقض خلف القضيتين في كيف وصدق واحد أمر قفي^(٣)

(١) التفكير الصوتي عند العرب في ضوء سر صناعة الإعراب، ص ٥٦.

(٢) انظر النحو العربي ذلك المتهم البريء «الباحث»، ص ١٢.

(٣) شرح القويسني على متن السلم، ص ٥٣.



وهذه الآية الكريمة تكون قياساً منطقياً شرطياً، نتيجته الحتمية هي: إن هذا القرآن من عند الله، ولا اختلاف فيه، ولذلك أمكن أن يضع النحوي العربي قانوناً ثابتاً، لأنه أخذه من واقع لغوي ثابت ومعجز أبداً، أما غيره مما يكتبه البشر فيستحيل أن يمر عليه قرن من الزمان - وهو الحد الأقصى - دون أن يعثره: (نقد، أو نقض، أو نقص، أو إضافة)، أما الواقع اللغوي القرآني، فلم يعثره شيء من ذلك رغم مرور أربعة عشر قرناً، وليس قرناً واحداً، ولن يعثره لأنه كلام الله تعالى، ولذلك تمكن النحوي العربي من وضع قانون لغوي يظل مدى الدهر جديداً، أما الذي يمكن أن يوجه إليه النقد، ويعتبر عقبة، ومنفراً من النحو، هو ذلك الإسراف في الخلافات والاختلافات التي نشاهدها عند بعض النحاة، لكن ينبغي أن يعرف أن هذه المبالغات شيء، والقانون النحوي الثابت شيء آخر، فلا يجوز أن تؤدي تلك المبالغات والخلافات إلى تهمة النحو بأنه صعب ومعقد، فالمبتدأ والخبر مرفوعان عند جميع النحاة، وفي الواقع اللغوي، ولكن الخلاف في: «ما الذي رفعهما» فهذا وغيره شيء آخر لا يجوز أن يكون دليلاً على صعوبة النحو، لأنه غيره، وهو ترف علمي يظل دليلاً على ما وصل إليه أسلافنا من اهتمام بهذه اللغة، وعاء الإسلام، فهم يحرصون على سلامة الوعاء لأنهم يعلمون أنه إذا انكسر الوعاء سال وضاع محتواه.

حوار بين اللغة وأبنائها:

لا يفهم الشريعة من لم يفهم لغة الشريعة، ولذلك فإنها تشكو أبنائها لأنفسهم وضمايرهم، فنقول: ألم تعلموا أنني وسعت كتاب الله لفظاً وغاية كما قال الشاعر حافظ إبراهيم على لسان اللغة العربية تقول:

وسعتُ كتابَ الله لفظاً وغاية	وما ضقتُ عن أيِّ به وعظايتُ
فكيف أضيقُ اليومَ عن وصفِ آله	وتنسيقِ أسماءِ لمخترعاتِ
رموني بعقمٍ في الشبابِ وليتني	عقمتُ فلم أجزع لِقولِ عِداتي

ولدت فلما لم أجد لعراشسي رجالاً وأكفاء وأدت بناتي

ثم تقول اللغة لأبنائها: ألم تسمعوا قصة الثعلب الذي عجز عن الوصول إلى قطف العنب ماذا قال؟ أقول لكم ماذا قال، لقد قال قولاً شاع وانتشر:

قال هذا حامض لما رأى إلا يناله

ثم تسألهم ثانية: أتدرون ماذا يقول المريض السقيم الذي أفسد المرض ذوقه إذا سئل عن طعم الماء الزلال؟ إنه يقول: مرّ علقم، ولسان حاله يردد مع المتنبي:

ومن يك ذا فم مرّ مريض يجد مرّاً به الماء الزلالا

وقول البوصيري في برده:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

أما أنا فقد تأججت عاطفتي فجادت بالآيات التالية:

هاك يدي من حالكات ظلامي
وأرى به الخير العميم أمامي
أم أنه يطفي غليل الظلامي
والبحث دوماً علة الإفهام
فإذا به ذهب أصيل سامٍ
والقلب من جل الرذيثة دامٍ
يسمو بها وبقوة الأنغام
لنعيش في عز وفي الإنعام
تنساح خيراً من رحيق ختام
وإد البريئة في التراب الحامي

يا طيف إلهامي إليك فُيامي
إنني أرى نوراً بعين بصيرتي
فأقول هل هذا سراب زائل
وأظل أبحث في حقيقة أمره
وأعود أصهره ببوتقة الحجا
والكل يهمله ويتركه سدى
لغة أتت ببلاغة وبيانها
جاءت بدين رحمة من خالق
دين تغلغل في نفوسٍ أصبحت
عمر العظيم بغير دين محمد



لكنه بالدين أصبح عادلاً ويخاف لو تكبو دواب الشام
ويقول لو أني وضعت طريقها سهلاً لما عثرت بجنح ظلام
بالدين صار إمام عز عادلاً يقظاً رحيماً نير الأحلام

ثم تعود اللغة لتسدي بعض النصائح لأبنائها:

النصيحة الأولى:

ينبغي أن يكون طلاب الشريعة واللغة من خيرة المواهب والخامات وأن يكون لهم المكانة والتقدير، إنكم تطلقون على من يقيم البناء مهندساً وله مكانه ومكانته، وعلى من يعالج الأجسام طبيباً، وله مكانه ومكانته كذلك - وهذا حق -، أما من يبني العقول والقلوب والأخلاق التي يعتبر القرآن الإنسان ميتاً بدونها، ويجعلها غاية الرسالات السماوية مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَمْ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

إن هذا الذي يبني العقول والقلوب والأخلاق لا تجيدون صناعته ولا ترفعون مكانته، ليقبل أصحاب المواهب والأوائل على دراسة الشريعة واللغة.

النصيحة الثانية:

ينبغي أن يكون لطلاب الشريعة إعداد خاص قبل الدراسة الجامعية، يأخذون في المراحل التعليمية السابقة: الأساسية، والثانوية القسط الكافي من علوم الشريعة واللغة بحيث يُعدّون إعداداً خاصاً يمكنهم من السير في الدراسة الجامعية الشرعية على أحسن وجه.

النصيحة الثالثة:

ينبغي أن تأخذ اللغة حقها في المنهج الجامعي على مدى السنوات الأربع ليتمكن ترسيخ القواعد بكثرة التطبيق عليها من واقع اللغة التي تمكّنهم

من فهم الأحكام التي لا تفهم إلا بفهم اللغة كأوجه القراءات القرآنية، وما يتخرج عليها من أوجه الإعراب، وما يترتب على ذلك من أحكام، وهو باب واسع ونافع، ولنأخذ على ذلك مثلاً أو مثلين: قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، يقرأ (البر) بالرفع والنصب^(١)، فالحجة لمن رفع أنه جعله اسم (ليس) والخبر (أن تولوا) لأن معناه توليتكم، والحجة لمن نصب (البر) أنه جعله خبر ليس واسم ليس (أن تولوا)، ودليله أن (ليس) وأخواتها إذا أتى بعدهن معرفتان كنت مخيراً فيهما، وإن أتى بعدهن معرفة ونكرة كان الاختيار أن نجعل المعرفة الاسم والنكرة الخبر^(٢).

والمثال الثاني في قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَا لَسَاحِرٌ﴾ [طه: ٦٣]، أجمع القراء على تشديد نون (إن) إلا ابن كثير وعاصماً فإنهما خففاها، وأجمعوا على لفظ الألف في (هذان) إلا أبا عمرو فإنه قرأها بالياء، فالحجة لمن شدد النون في (إن) وأتى بالألف في (هذان)، ولم يقلب الألف ياء في حالة النصب، أنه احتج بخبر (الضحاك) عن ابن عباس أن الله تعالى أنزل هذا القرآن بلغة كل حي من أحياء العرب^(٣)، وهذه بلغة (الحارث بن كعب) لأنهم يجعلون المثنى بالألف في كل وجه قال شاعرهم:

إن إياها وأبا إياها قد بلغا في المجد غايتها^(٤)

والحجة لمن خفف النون في (إن) أنه جعلها مخففة من الثقيلة فأبطل عملها ورد ما كان بعدها إلى أصله، والوجه الآخر أن تكون (إن) نافية واللام في (لساحران) بمعنى «إلا» والتقدير «ما هذان إلا ساحران»^(٥).

(١) قراءة حمزة وحفص.

(٢) الحجة في القراءات السبع «ابن خالويه» ص ٩٢.

(٣) انظر أسد الغابة، (٣/١٩٢).

(٤) انظر شرح ابن عقيل، (١/٣٨).

(٥) انظر الحجة في القراءات السبعة، ابن خالويه، ص ٢٤٢.



وإن التواصل والتداخل بين اللغة العربية وعلوم الشريعة المختلفة واضح بيّن، إنه اتصال الوسيلة بالغاية، والجزء بالكل، ليس في علم القراءات فحسب، بل في بقية علوم الشريعة المختلفة كعلم أصول الفقه، والفقه وغيرهما، وهاكم مثلاً من كتاب قيم للإمام الأسنوي اسمه: «الكوكب الدرّي فيما يتخرج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية» يقول: «إن الناظر في كتب أصول الفقه وكتب أصول النحو في مراحل متأخرة ليدّش من التشابه الشديد في مصطلحات هذين العلمين، فإذا كان علم أصول الفقه هو: علم أدلة الفقه، وإذا كان الفقهاء قد ذهبوا في تقسيم الحكم الشرعي إلى: واجب ومحذور ومندوب ومكروه، ووضعوا، فكذلك ذهب النحويون في تقسيم الحكم النحوي إلى واجب وممنوع وحسن وقبيح وخلاف الأولى وجائز على السواء، وإذا كانت أدلة الفقه الرئيسية هي النقل والإجماع والقياس، فكذلك أدلة النحو الرئيسية فإنها النقل والإجماع والقياس»^(١).

ومن المسائل التي أوردها كتاب «الكوكب الدرّي» وهي كثيرة ورائعة وقد ذكرت في مغني اللبيب لابن هشام^(٢)، وهي حكاية يدير الكسائي فيها مسائل الفقه على قضايا النحو، وهي من حكايات كثيرة، تقول هذه الحكاية: «إن الرشيد كتب ليلة إلى القاضي أبي يوسف - صاحب أبي حنيفة - يسأله عن قوله:

فإن ترفّقني يا هند فالرفق أيمن وإن تخرّقني يا هند فالخرق أشام
فأنت طلاق والطلاق عزيمة ثلاث ومن يخرّق أعق وأظلم

فقال: ماذا يلزمه إذا رفع «الثلاث» وإذا نصبها؟ فسأل أبو يوسف الكسائي فأجاب الكسائي: إن رفع كلمة «ثلاث» فطلقة واحدة، لأنه قال

(١) الكوكب الدرّي فيما يتخرج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية، ص ٤٩.

(٢) مغني اللبيب، (١/٥٤).

أنت طلاق ثم أخبر أن الطلاق التام ثلاث، وإن نصبها طلقت ثلاثاً، لأن معناه: أنت طالق ثلاثاً وما بينهما جملة معترضة، يقول أبو يوسف: فكتبت بذلك إلى الرشيد، فأرسل إليّ بجوائز فوجهت بها إلى الكسائي^(١).

وهذا غيض من فيض مما يؤكد العلاقة بين علوم الشريعة واللغة العربية التي فضلها الله وكرمها فصارت محفوظة بحفظ الله لكتابه، وصدق الله العظيم القائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وبالختام أرجو أن أكون قد وفقت في هذا البحث ولا أتواضع حين لا أدعي الكمال، ولكن حسبي أنني عشت أبرك الساعات، مع أبرك الكلمات، والحمد لله في البدء والختام.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأنام.



(١) الكوكب الدري، ص ٤٧.



ملخص البحث

لقد اختار الله تعالى اللغة العربية من بين لغات العالمين لينزل بها كتابه الكريم لأنها أوسع اللغات، وهو جل شأنه أعلم حيث يجعل رسالته: إنساناً ولغة، وزماناً، ومكاناً، وصدق الله العظيم القائل: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، كما أتى ﷺ رسوله الكريم جوامع الكلم، قال ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم»^(١).

وقد تناول البحث عدة عناوين: «اللغة العربية لسان الوحي والتعبء» فيها نزل القرآن وحفظ، وبها يقرأ القرآن ويُعبد الرحمن، وقد اختار العليم الخبير هذه اللغة وعاء لكتابه، ويتحدى أهل البيان أن يأتوا بسورة من مثله فيعجزون على فصاحتهم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٢) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ أَتَىٰ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) [البقرة: ٢٣، ٢٤].

ثم تناول البحث علم النحو: نشأته، وصلته بعلوم الشريعة، وقد نشأ علم النحو حفظاً لهذه اللغة، وبهذه اللغة تمكن العلماء من الكشف عن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، وقد مثلنا في البحث بعدة أمثلة كصلة الحروف والألفاظ بالمعاني في القرآن الكريم، واستعمال التذكير في موضع التأنيث أو العكس، والترادف وأثره البلاغي في الكلمة القرآنية، وكلمتي: «أحد وواحد» و «إن وإذا»، وكذلك وضحنا في هذا البحث أثر بناء الكلمة

(١) تمييز الطيب من الخبيث ص ٤٧.

وتكونها في الكشف عن الدلالة في الكلمة القرآنية، وهو المسمى علم الصرف، راجين أن ينفع الله بهذا البحث من يودون الاطلاع على أوجه الإعجاز في الكلمة القرآنية. والله من وراء القصد.

الباحث، د. توفيق حمارشة



المصادر والمراجع

- أبنية الصرف في كتاب سيويه، د.خديجة الحديثي، الطبعة الأولى، ١٩٦٥م.
- أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي، د.فتحى الدجني، الكويت، ١٩٧٤م.
- أدب الكاتب، لابن قتيبة، دار صادر، ١٩٦٧م.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير، ١٢٨٦هـ.
- الأشباه والنظائر، للسيوطي، حيدر آباد، الطبعة الثانية، ١٣٦٠هـ.
- إنباه الرواة على أنباء النحاة، للقفطي، تحقيق أبو الفضل، مطبعة دار الكتب.
- أوضح المسالك؛ لابن هشام، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة التجارية، ١٣٧٥هـ.
- بدائع الفوائد؛ لابن قيم الجوزية، إدارة الطباعة المنيرية.
- التطبيق الصرفي؛ د.عبد الرأجي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- التفسير القيم؛ لابن القيم، لجنة التراث العربي، بيروت - لبنان.
- تفسير الكشف؛ للزمخشري، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان.
- التفكير الصوتي عند العرب في سر صناعة الإعراب؛ هنري فلش، بيروت.
- جامع الدروس العربية، للغلاييني، المطبعة العصرية، بيروت، ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م.
- حاشية الصبان؛ دار إحياء الكتب العربية.
- الحجة في القراءات السبع؛ لابن خالويه، تحقيق د.عبدالعال سالم مكرم، دار الشروق، ١٤٠١هـ.
- الخصائص؛ لابن جني، تحقيق الشيخ محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، ١٩٥٥م.
- شرح ابن عقيل؛ الشيخ محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.
- شرح الشافعية؛ رضي الدين الإسترابادي، حجازي، مصر، ١٣٥٦هـ.
- شرح متن السلم، للشيخ حسن القويسني.

- الصحاح في اللغة؛ لابن فارس، المكتبة السلفية، ١٣٢٨هـ/١٩١٠م.
- الصحاح؛ للجوهري، دار الكتاب العربي.
- في أصول النحو؛ للأفغاني، دار الفكر، مطبعة دمشق، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م.
- فقه السنة؛ السيد سابق، دار البيان، الكويت، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
- فقه اللغة وسر العربية؛ الثعالبي، المكتبة التجارية الكبرى - مصر.
- كتاب الأضداد؛ لابن الأنباري، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دائرة المطبوعات والنشر، الكويت، ١٩٦٠م.
- الكوكب الدرّي فيما يتخرج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية؛ للأسنوي، دار عمار، ١٤٠٥هـ.
- لسان العرب؛ لابن منظور، دار صادر، بيروت.
- محيط المحيط؛ المعلم بطرس البستاني، مكتبة لبنان - بيروت.
- مختصر تفسير ابن كثير؛ الشيخ محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم - بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م.
- مراتب النحويين؛ لأبي الطيب اللغوي، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.
- مسألة الحكمة في تذكير «قريب» في قوله تعالى: ﴿إِنْ رَئَيْتَ أَنَّ اللَّهَ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ لابن هشام، تحقيق د. عبدالفتاح الحموز، ١٤٠٥هـ.
- المصحف الميسر؛ الشيخ عبدالجليل عيسى، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٣٩٤هـ.
- معجم الأدباء؛ لياقوت، تحقيق مرجليوت، مطبعة الحلبي.
- معجم ألفاظ القرآن الكريم؛ مجمع اللغة العربية - القاهرة.
- مغني اللبيب؛ لابن هشام، تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبدالحميد، دار إحياء التراث.
- المفردات في غريب القرآن؛ للراغب الأصفهاني، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت.
- النحو العربي ذلك المتهم البريء، د. توفيق أسعد حمارشة، الهيئة العامة للتعليم التطبيقي، ١٩٨٢م.
- نزّهة الألباء، لابن الأنباري، تحقيق د. إبراهيم السامرائي، بغداد، ١٩٧٢م.
- نشأة النحو، للشيخ محمد الطنطاوي، دار المعارف، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.